عالم الغيب :

الجن فى منطق الأساطير

للشيخ محمد رجب البيومى

(تتمة ما نشر فى العدد الماضى)

أما العامل المادى فقد كان ذا أثر ملموس فى شيوع الخرافات حيث كانت البادية مورداً تجاجاً لما انتشر على الألسنة من الأساطير وطالما وفد إليها المتندرون والمتظرفون ، يستملون ويستنبؤن . وإن أحدهم ليصحب البدوى إلى حاضرته ليقص على أصحابه وذويه ما يتقنه من الترهات إزاء أجر ثمين ، وطبيعى أن يلجأ الأعرابى إلى الاقتعال ، لتنفق بضاعته ، فتملأ حقيبته ، وهنا يطلق لخياله العنان فيزعم أنه رأى الشيطان مرة فاستضافه وأنشده الشعر ، ومرة أخرى لحاربه وصرعه ، وكلما كان البدوى شديد المبالغة فى حديثه كان أخف موقعاً فى القلوب ، وأسلس مقادة للعقول ، فإذا أخذ نصيبه المادى ورجع إلى خيمته عكف على اعتمال الأباطيل ليكون على أتم استعداد إذا طلب مرة أخرى للسمر والاستمتاع ! !

ويجدر بنا أن نشير إلى ما شاع لدى العرب من تأثير الجن فى الأجسام ، فإذا مرض منهم مريض لجأوا إلى العرافين ومن بق من ذوى الكهانات ، وهؤلاء لا يرعون فى الناس حرمة أو ذمة بل يجسدون الأوهام ، ويبلبلون الخواطر ، فيزعمون أن بالمريض مساً يجب أن يتدارك ، ويطلبون الأجور المرتفعة جزاء ما يقررون من التعاويذ الكاذبة ، وما يصنعون من الرقى الباطلة . وقد يعشق البدوى فتاة تنتزع فؤاده من أضالعه ، وتخطف عقله من رأسه ، فيأتى به ذووه إلى العراف فيلجأ أيضاً إلى التمائم والتعاويذ ، وكأنه يرى مريض القلب لا يختلف عن مريض الجسم ، فيجعل الدواء واحداً لكلا الرجلين ، وقل فى الجهالة ما تشاء ! !

وقد يبالغ بعض العرافين فيزعم أن الجن تعشق الإنس عشقاً مبرحاً وأن الجنية تلاقى الصد والتيه ما يلقاه الإنسى ، فإذا تمكنت الصبوة من فؤادها ، سلب رشادها ، وتبددت قوتها ، فيمر بها قومها من الجن فيسألون عنها ، فيقال مسها إنسى كما يقال لمن صرع من الإنس مسه جنى ، والطبيب فى كلتا الحالتين هو العراف الأثيم ! !

ولا يترك الفقهاء هذا الباب حتى يؤيدوه بما يمن لهم من الأدلة ، ونحن نعلم الخلاف العريض بين أهل السنة والمعتزلة فى الصرع والمس حيث قد ذهب الفريق الأول إلى حدوث ذلك ، وقد استشهدوا بحديث رواه البخارى ، كما أجاز بعض الحنفية زواج الجنية من الإنسى ! ! قال الجاحظ « وزعموا أن التناكح والتلاقح قد يقع بين الجن والإنس لقوله تعالى وشاركهم فى الأموال والأولاد ؛ وهذا ظاهر لأن الجنيات إنما تتعرض لصرع رجال الإنس على جهة العشق فى طلب السفاد ، وكذلك رجال الجن لنساء الإنس ولولا ذلك لعرض الرجال للرجال والنساء للنساء . قال تعالى لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان ، ولو كان الجان لا يغتض الآدميات ولم يكن ذلك فى تركيبه ، لما قال الله تعالى ذلك القول »

وهذا قول لا يدرى حقه من باطله ، وإلا فكيف نقول لمدنف عاشق يهوى فتاة معنية باسمها وصفتها إن به مساً من الجن ! ! ولماذا يزول المس إذا اقترن بمحبوبته الإنسية ؟ وأين الجنية المزعومة إذن ؟ كل هذا تدجيل صارخ فطن إليه من قال .

وقالوا به من أعين الجن نظرة ولو علموا قالوا به أعين الإنس

وكم فى الحياة من أكاذيب ! !

بقى أن نتحدث عن العوامل الأخلاقية ، وهى ذات الحظ الأوفر فى اختلاق الأساطير ، لأنها ترجع إلى عامل واحد ، هو الافتخار بالمواهب ؛ وقد شاع لدى العرب أن الجن متقدمون عن الإنس فى كل شىء ، فهم مصدر الإلهام فى الشعر ، ومنبع الوحى فى البيان ، وهم أولو البأس فى القتال والصيال ، وهم سلاطين الصحراء وأمراؤها ، يستأذنون فيأذنون ، ويأمرون فيطاعون . كل أولئك قد جعل أصحاب الزهو والخيلاء يزعمون أنهم يفوقون الجن فى مواهبهم ، ويزاحمونهم بمنكب ضخم فى مناقبهم ، وما من دليل سوى الأساطير المزعومة يخلقها أولو الفخر الكاذب فيتناقلها الناس على ممر العصور ! !

فالشاعر مثلاً يرى أن منزلته لا تعظم فى قبيلة لا إذا زعم أن الجن تلهمه ومن ثم يتجه إلى وادى عبقر كل يوم حيث يصمد إليه

الوحى من الأرض ، بدل أن يهبط عليه من السماء ! ! ونحن ننظر فنجد ذا الرمة وأبا النجم ، ورؤبة والأعشى وغيرهم يدعون أقرانهم من الشياطين ، هم ناظمو القصائد ومبدعو المعانى والأساليب ، وربما سمى الشاعر قرينه باسم معين ، وذهب يفتخر به فى كل ناد ، كما قال الأعشى فى قرينه « مسحل »

وما كنت شحذوذا ولكن حسبتنى
إذا مسحل يسدى لى القول أعلق

شريكان فيما بيننا من هوادة صفيان ، إنسى وجن موفق

وصحائف الأدب ملئية بما يماثل ذلك ، وربما كان أصل هذه الفكرة لدى العرب أن شاعراً حسد زميله فى إبداع ، فأدعى أن الشيطان هو الذى يجرى البيان على لسانه ، وفى جمهرة أشعار العرب أساطير تؤيد ما نقول ، ومن ذلك ما زعمه ابن المرزوى عن أبيه أنه مر على جماعة ظباء فى سفح جبل ، فرأى شبحاً ذا منظر غريب فارتاع منه ، فقال له اذكر الله ولا تخف ثم سأله : أتروى من أشعار العرب شيئاً ؟ فقال المرزوى : نعم وأخذ يروى له شعر عبيد بن الأبرص ! ؟ فسأله الشيخ من قائل هذا الشعر ؟ ؟ فقال : عبيد ، فتهانف وقال : ومن عبيد ، لولا صاحبه هبيد ؟ ! ثم شاعت بهذه الخرافات فكرة الأخذ عن الجن فكان كل شاعر يأتى بعد ذلك يزعم أن له قرينا ، بل ربما ميز شيطانه بخصائص لا توجد فى غيره ، كما زعم أبو النجم وشركاؤه . وأتى من الزاوة من بسط الحبل على امتداده ، فقيض لكل شاعر أنجبته الجاهلية شيطاناً فهوله قرين ، وإن لم يعترف به الشاعر نفسه ، فلاقط قرين امرئ القيس ، وهاذر صاحب النابغة ، وجهنام شيطان عمرو بن قطن وغير هؤلاء لا يحصون ! !

هذا فى الشعر والأدب ؛ أما الافتخار بالشجاعة فقد أورث العربية تركة مثقلة بالخرافات ، فكل سعلوك يزهى ببسالته ، ويختال ببطشه ، يختلق من الأساطير ما يؤيد دعواه ، فيزعم أنه حارب الجن ، ولقى السعلاة فضربها بسيفه ، وامتطى الغول فى البيداء ، وقد زعم صاحب الأغانى أن ثابت بن جابر لقى الغول فى ليلة دامسة ، فأخذت عليه الطريق ، فلم يزل بها حتى قتلها وبات عليها ، فلما أصبح حملها تحت إبطه وجاء بها إلى أصحابه فقالوا له لقد تأبطت شراً ، فلقب بهذا القول وعرف به لدى الجميع .

ومهما يكن من شىء فإن تأبط شراً قد أكثر من الحديث عن الجن إكثاراً لم يتح لغيره . وكأنه رأى فى انتصاره الموهوم على الغول ما يبرر له كل اختلاق ، فذكر فى شعره محاورة قامت بينه وبين غول ضربها ضربة واحدة بسيفه ، فقالت له : ثن الضربة ، فأبى كيلاً تعود لها الحياة إذا ضربت مرة ثانية حسب اعتقاده ، كما زعم أنه قابل وفداً من الجن فأشعل النار ونحر الذبائح ودعاهم إلى الطعام ، فذكروا أنهم يحسدون عليه الإنس فهم لا يأكلون كما نأكل ، اسمعه يقول من أبيات .

أتوا نارى فقلت منون أنتم فقالوا الجن قلت عموا ظلاما
فقلت إلى الطعام فقال منهم زعيم نحسد الإنس الطعاما
لقد فضلتمو بالأكل عنا ولكن ذاك يعقبكم سقاماً

وقد ابتلى تأبط شراً بمن كذب دعواه ، فزعم أنه نزل بشعب وادى الجن فرأى وجوها صباحاً وسما ، فنحر لهم مطيته ليأكلوا من طيباتها الشهاة ، ذلك هو جذع بن سنان الغسانى إذ يقول .

نزلت بشعب وادى الجن لما رأيت الليل قد نشر الجناحا
أتونى سافرين فقلت أهلا رأيت وجوهكم وسما صباحاً
نحرت لهم وقلت ألا هلموا كلوا مما طهيت لكم سماحاً

وقد لا يكتفى المملوك بأن يفخر بنفسه بل يتعدى ذلك إلى قبيلته ، فيزعم أنها حاربت الجن ، فانتصرت انتصاراً رفعها إلى ذروة عالية من المجد . قال أحد الأفاكين من بنى سهم : ذهب جنى يطوف بالبيت فعرض له شاب من بنى سهم فقتله ، فثارت بمكة غبرة لم تبصر لها الجبال — وإنما تثور تلك الغبرة عند موت عظيم من الجن — فأصبح من بنى سهم على فرشهم موتى كثير من قبيل الجن ، فكان فيهم سبعون سيخاموى الشباب ، فهضت بنوسهم وحلفاؤها إلى الجبال والشعاب بالتنية ، فما تركوا حية ولا عقربا ولا خنفساء ، ولا شيئاً من الهوام يدب على الأرض إلا قتلوه وأقاموا على ذلك ثلاثا ، فسمع فى الليلة الثالثة هاتف يهتف بصوت جهورى ، يا معشر قريش اعذرونا من بنى سهم فقد قتلوا منا أضعاف من قتلنا منهم فأصلحوا ما بيننا ، ففعلت ذلك قريش ، وسميت بنوسهم « قتلة الجن » .

وكثير من مسطرى هذه الأخبار — فى القديم — من يملأ

بها الصحائف دون أن يلفت الأنظار إلى مبانيها من الافتراء وكأنه يرى من الأمانة العلمية أن يذكرها كما تلقفها من الأفواه، أو نقلها عن الأسفار بدون تعليق يضع الحق فى نصابه، بل لعله يتعصب لها تعصباً يترك القارىء فى شك من أمره، ولكن الحق لا يعدم أنصاره فى كل زمان ومكان، فكما وجد جماعة من الفقهاء يشيعون لهذه الأساطير، فقد وجد منهم آخرون يفندونها أتم تفنيد، قال ابن حزم عن الجن: «ومن ادعى أنه يراهم أو رآهم بالفعل فهو كاذب إلا أن يكون من الأنبياء» وقال أبو إسحاق المتكلم فيما رواه عنه الجاحظ «وأصل هذه الفكرة أن القوم تأثروا بوحشة بلادهم، ومن أقام بالصحراء منفرداً استوحش وابتلى بالوسوسة، وتمثل له الشيء الصغير كبيراً، فإذا اشتملت عليه الغيطان، وسمع صياح بومة أو مجاوبة صدى، تصور فى نفسه كل باطل. وربما كان أحدهم كذاباً فيأتى بشعر يزعم فيه أنه رأى الغيلان وكلمها ثم يتجاوز ذلك، فيقول قتلتها، ثم يتجاوز ذلك فيقول رافقتها وتزوجتها» ويستفيض حديثه بين الناس فتسيل به الأندية والمجتمعات»!

هل عرفتم مصرع حرب بن أميه؟ فقد خرج فى نفر من قومه فاعترضتهم حية خبيثة فقتلها وكانت من الجن — فجاءت حية أخرى فطالبت بالثأر، وقام بين الفريقين معركة طاحنة قتل فيها حرب، ودفن حيث وافته منيته فقالت فيه الجن.

وقبر حرب بمكان قفر وليس قرب قبر حرب قبر

وهل علمتم أن سيد الخزرج سعد بن عبادة رضى الله عنه أصيب بسهمين خاتلين من الجن ففاضت روحه الكريمة إلى بارئها العظيم؟ ثم رثوه بعد ذلك بشعر نائح! وهل سمعتم أن الفريض غنى بالبادية صوتاً مؤثراً فحسده الجن وقتلوه!؟ وهل تدرون أن أمية بن أبى الصلت تعرض ليهودية من الجن، فبرص أعلاه واسود أسفله. هذا رذاذ من وابل هطال تتدفق به الأساطير!

إن فى هذه الخرافات لمتعة عجيبة، وأخشى أن أدعو إلى تذوقها تذوقا فنياً يكشف عن طرافتها الغريبة، فأجد — فى القرن العشرين — من يميل إلى تصديقها من الناس! ولم لا يكون ذلك والغباوة تسير مع الزمن فى خطوة السريع!

رحم الله أيام الطفولة، فقد ملأت مخيلتى بآلاف مؤلمة من هذه النوادر، وكدت أسمعها فى لذة ومتعة، فأترنح من السرور كمن مالت بقامته نشوة السلاف! فأين مضى هذا العهد الحالم، وكيف عصفت به ريح الزمان!!

أقرأ على الوشل السلام وقل له كل المشارب مذ هجرت ذميم

(الكتر الجديد) محمد رجب البيومى

المصادر الهامة للبحث

(١) روح المعانى للآلوسى
(٢) السيرة الحلبية لعلى بن برهان الدين
(٣) جمهرة أشعار العرب لأبى زيد القرشى
(٤) الأغانى لأبى الفرج الأصبهانى
(٥) حياة الحيوان الكبرى للدميرى
(٦) الحيوان للجاحظ
(٧) تاريخ الأدب الجاهلى لأستاذى الجليل محمد هاشم عطيه
(٨) قصص العرب للمرحوم جاد المولى بك
(٩) التصوف الاسلامى للدكتور زكى مبارك
(١٠) مقالات متفرقة فى الرسالة والمقتطف

تاريخ الأدب العربى

للأستاذ الزيات

تقدمت الطبعة العاشرة من هذا الكتاب

أما الطبعة التى تباع الآن فى البلاد العربية

فاحترس منهـــا

انها طبعة مزيفة فيها النقص والخطأ والتحريف

والتشويه زيفها أمهر الكتبيين فى القاهرة

انتظر الطبعة الحادية عشرة قريبا

طبعة أنيقة صحيحة فيها زيادات كثيرة

ولاسيما فى العصرين العباسى والحديث